ارتفاع الصليب

سير منسوب الى القديس كيرلس اسقف اورشليم
٣١٣–٣٨٧م

نشره لاول مرّة ، وعلّق عليه
الخوري بولس قرألي ، مدير المجلة البطريركية

٤

البحث الثاني

الاعتراضات (تابع)

٩ ــ تأثرها واسرها التاريخية

أ ــ نشأتها

فانت ترى ان الاسطورة الثالثة تضم الاسطورتين السابقتين وتلحمها بقولها ان عود الصليب الذي استخلصتهُ القديسة بطرسية من ايدي اليهود ، عاد هؤلاء فطمروه لما تقووا في عهد طرايانوس وظل مطمورًا حتى جاءت القديسة هيلانة فاخرجته من الردم وبنت له كنيسة عظيمة . وقد تضمنت هذه الاساطير من المبالغات والاختلاقات والاغلاط ما حدا العلماء الى الاعتراض عليها وتفكيكها قطعة قطعة . فتركوها آلة لا نظام لها ولا حراك ولا قيمة ، وعدّوها ملفّقة ، مع تسليمهم بانها قديمة في نشأتها ونسخها ، ومستندة الى بعض حقائق تاريخية .

واليك خلاصة آرائهم فيها ، نأخذه عن مقالات الاب لكلير المذكور :

في اواسط القرن الرابع نشأت في كنيسة الرها اسطورة القديسة بطرسية . تجدها في كتاب تعليم أداي الحاوي للاساطير الخاصة حول نشأة هذه الكنيسة . وهي موضوع المخطوطة الباريسية رقم ٢٣٤ ، المنسوخة على الارجح في اواخر

القرن الخامس .

وبعد مضي زهاء ثلاثين سنة ، اي في العشرين سنة الاخيرة من القرن الرابع ، حلّت القديسة هيلانة الملكة محل القديسة بطرسية الملكة . فجاءت مثلها الى اورشليم ، واستعلمت مثلها من اليهود عن الصليب ، ووجدت مثلها ثلاثة صلبان، وعرفت مثلها الصليب الحقيقي من اقامته الميت ، وبنت له مثلها كنيسة كبيرة .

اما قصة يهوذا ، الذي دلها على مكان الصليب وتنصّر ثم سيم اسقفاً على اورشليم باسم قرياقوس ، فقد نشأت في مخيلة مسيحي فلسطين ، الذين ادغموا يهوذا المذكور بقرياقوس اسقف اورشليم الخامس عشر المستشهَد حسب قول اوسابيوس ، في عهد ادريانوس . ولما بلغت هذه القصة الى الرها تألفت منها اسطورة هيلانة - قرياقوس موضوع المخطوطة رقم ١٤٦٤٤ من المتحف البريطاني، المنسوخة ، على الارجح ، في اوائل القرن السادس .

ثم ضمت الاسطورتان معاً في الرها ايضاً ، للتوفيق بينها ، وتألفت منها اسطورة بطرسية - هيلانة - يهوذا - قرياقوس ، موضوع المخطوطة الثالثة الاحدث عهداً رقم ١٢١٧٤ من المتحف البريطاني ، التي ترتقي نسختها كما قلنا الى القرن الثاني عشر .

فاصبح اكتشاف الصليب مرتين : الاولى على عهد يعقوب الرسول بسعي القديسة بطرسية ، والثانية على عهد قسطنطين الملك بسعي والدته هيلانة . وفي اواخر القرن الرابع كانت هذه الاساطير قد شاعت في كل النصرانية فردّدها مؤرخون ولدوا في اوائله ونسبوا الى القديسة هيلانة ، التي زارت اورشليم في الربع الاول منه ، فضل اكتشاف الصليب المقدس: كالقديسين امبروسيوس ، ويوحنا فم الذهب ، وبولينوس من نولي، والمؤرخين سولبيس ساويرس وروفينوس الاكويلاني . ومن اليونانيين سُقراط وسوزومين وتلودوريطوس .

ومما لا شك فيه ان حكاية اعتماد قسطنطين ويهوذا من يد اوسابيوس اسقف رومية مصدرها رهاوي . لانه لا يعقل ان غربياً يخلط بين هذا الاسقف واوسابيوس اسقف نيقوميدية ثم اسقف القسطنطينية ، الذي عمد قسطنطين في

آخر حياته ولهذه الاسباب نبذ المؤرخون الغربيون هذه الاسطورة بعد ظهورها بنصف قرن.

٢ ــ اسسها التاريخية

ولننظر الآن ما لهذه الاساطير من الاسس التاريخية ، ملخصين مقالة الاب لكلير في هذا الصدد[1]

في بدء القرن الرابع كان القبر المقدس في حالة يرثى لها . فقد كان مطمورًا في تلّ من التراب المكدَّس ، يعلوه هيكل الزهرة الهة العشق . ففكر قسطنطين الملك في ان يضع حدًّا لهذه الاهانة اللاحقة بالصليب المقدس ، وامر بهدم هيكل الزهرة ورفع الانقاض والردم . ولما ظهرت مغارة القبر امر بان تقام عليه كنيسة فخيمة ، قدمت المقاطعات الشرقية نفقاتها . وكتب الملك الى مكاريوس اسقف اورشليم ان يسهر على فخامة البناء ، والى دراسيليانوس ، حاكم المقاطعة ، ان يشرف على الاعمال ويؤمّن سيرها.

عرفنا هذه التفاصيل من المؤرخ اوسابيوس ، الذي اثبتها في ترجمة قسطنطين[2] وزاد عليها قوله : ان كنائس اخرى اقيمت في بيت لحم وعلى جبل الزيتون بعناية هيلانة والدة الملك ، حين زارت فلسطين سنة ٣٢٦[3]

وفي سنة ٣٣٥ تمت كنيستا القيامة والجلجلة وحضر تدشينهما الاساقفة العائدون من مجمع صور ، حيث حطوا القديس اثناسيوس الاسكندري عن كرسيه ، لاسباب سيأتي ذكرها . وقد اسهب اوسابيوس في وصف فخامة الكنيستين وافادنا ان قسطنطين عيّن لتدشينهما عيدًا رسميًا في كل الامبراطورية كان المؤمنون يتقاطرون من كل الجهات الى اورشليم لحضوره.

اما ميعاد اكتشاف الصليب فلا علم لنا به.

وقد انبأتنا السائحة أثيريا الفرنسوية ، التي زارت فلسطين في اواخر القرن الرابع ، ان الصليب ظهر في احد اعياد تدشين الكنيستين . وعرفنا من غير

---

١) راجع كابرول مج ٣ : ع ٢١٢٤-٢١٢٧

٢) كتاب ٣ : فصل ٢٦ ٣) فصل ٢١

وثائق ان حفلة تكريم الصليب ، التي كانت قسماً من حفلة التدشين ، ما عتمت ان فاقتها اهمية واصبحت اكبر مظاهرها.

بيد اننا لا نرى ذكراً للصليب قبل سنة ٣٤٧ ، ولا ذكراً لعلاقة القديسة هيلانة باكتشافه قبل اواخر القرن الرابع.

ففي سنة ٣٤٧ يشير القديس كيرلس الاورشليمي ، في مواعظه ، الى تزاحم المؤمنين للفوز بذخائر عود الصليب[1] . وقد عُثر في جزائر الغرب على كتابتين تشيران الى « خشبة الصليب المقدس » ، ترتقي الاولى منها الى سنة ٣٥٩

وفي سنة ٣٦٣ نرى يوليانوس الجاحد يتهم المسيحيين بعبادة خشبة الصليب. وكانت القديسة ماكرينا ، شقيقة القديس غريغوريوس النيصي ، تحمل في سنة ٣٧٩ ذخيرة عود الصليب . وقد وصفت السائحة أثيريا ، في سنة ٣٨٥ ، الاسقف حاملاً بين يديه ذخيرة عود الصليب في حفلة الجمعة الحزينة والمؤمنين مزدحمين حوله للتبرك منها[2] . واردفت بقولها : ان الصليب وُجد في احد اعياد تدشين كنيستين ، دون ان تذكر علاقة القديسة هيلانة باكتشافه . انما اخبرتنا ان قسطنطين امر ببناء الكنيستين بجذور والدته . وبعد هذا التاريخ تُعطى القديسة هيلانة الدور الاول في حادثة اكتشاف عود الصليب :

ففي سنة ٣٩٥ نسمع القديس امبروسيوس ، في اثناء رثائه للملك تيودوسيوس[3] ينسب اليها فضل اكتشاف خشبة الصليب . كذلك القديس يوحنا فم الذهب ، في عظته عن مار يوحنا ، التي لفظها بين سنتي ٣٩٠ و٣٩٥ يقول قوله ويضيف اليه ان « الحفريات قد اظهرت ثلاثة صلبان كان اوسطها حاملاً الكتابة المذكورة في الانجيل ، فعُرف منها انه الصليب الحقيقي »[4]. وفي سنة ٤٠٢ يؤكد لنا المؤرخ روفينوس[5] ، وعنه اخذ سقراط[6] ، ان مكان الصليب

١) العظة ٤ رقم ١٠ ، والعظة ١٠ رقم ١٩ ، والعظة ١٣ رقم ٤ ، من مجموعة مين للاباء اليونان مج ٣٣ ع ٤٦٩ ، ٦٨٨ ، ٧٧٦

٢) هي تعني القديس كيرلس الاورشليمي لانه توفي في سنة ٣٨٧ كما سبق القول .

٣) مجموعة مين للاباء اللاتين مج ١٦ ع ١٣٩٩

٤) مجموعة مين للاباء اليونان مج ٨٥ رقم ١

٥) روفينوس : تاريخ الكنيسة مج ١ ف ٧ و٨ ٦) مج ١ ف ١٧

كان مجهولاً قبل مجيء هيلانة الى اورشليم ، انما الرب قد الهمها فأمرت بالحفر ووجدت ثلاثة صلبان حارت في ايها الحقيقي . فاستحضر القديس مكاريوس امرأة مشرفة على الموت ، نالت الشفاء التام بمجرد لمس الصليب الحقيقي ، فشيدت له هيلانة كنيسة عظيمة .

وفي هذه السنة ايضاً ٤٠٢ يخبرنا القديس بولينوس من نولي[1] وسولبيس سويرس المستقي منه[2] ان الملكة استرشدت الى مكان الصليب من اجماع آراء اليهود ، فأجرت الحفر . ولما ظهرت الصلبان ، استحضرت ، هي لا مكاريوس ، جثة ميت ، لا مريضة ، وعرفت الصليب المقدس من اعجوبة اقامته .

واقدم الشهادات عن الصليب هي للقديس كيرلس الاورشليمي . ففي الرسالة التي ارفدها سنة ٣٥١ الى الملك قسطنس ابن قسطنطين يعلمه بانتخابه اسقفاً على اورشليم ، ويخبره عن اعجوبة ظهور صليب من نور في الجو بين الجلجلة وجبل الزيتون ، شاهده كل سكان اورشليم . ويبدأ كلامه بقوله « في عهد والدك ، ذي التقى والذكر الصالح ، وُجدت في اورشليم خشبة الصليب المقدس . لان الله انعم على هذا الرجل بان يجد الاماكن المقدسة . »[3]

وقد انكر بعضهم نسبة هذه الرسالة الى القديس كيرلس للفقرة الاخيرة الواردة فيها عن الاستحالة . انما يعتقد اغلبهم بصحة نسبتها وان الفقرة دخيلة .

١٠ ــ الاعتراض عليها

يلخص الاب لكلير ، في مقالاته المنشورة في معجم الآثار ، آراء الذين سبقوه في درس هذا المشكل التاريخي وانكروا علاقة القديسة هيلانة باكتشاف القبر والصليب وبناء كنيسة القيامة وحججهم :

١ ــ سكوت المعاصرين عن ذكر خشبة الصليب قبل سنة ٣٣٧

٢ ــ لم ينسب احد الى الملكة هيلانة فضل اكتشاف الصليب قبل

---

١) رسالة ٣١ رقم ٢ ٢) التاريخ المقدس مج ٢ ف ٣٣

٣) مجموعة مين للاباء اليونان مج ٣٣ ع ١١٦٨

سنة ٣٩٠

٣ ــ لم ترَ هذه الملكة اورشليم قبل سنة ٣٢٦ ، وقد بلغت الثمانين ولم يبقَ امامها من الحياة سوى سنتين او ثلاث.

فقسطنطين في رسالته الى مكاريوس ، التي يوصيه فيها بالسهر على فخامة بناء كنيستي القيامة والجلجلة ، لا يذكر اكتشاف الصليب ولا علاقة والدته به

ناهيك عن ان مؤرخه اوسابيوس ، الذي اسهب في ترجمة حياته وذكر زيارة والدته لبيت لحم وجبل الزيتون سنة ٣٢٦ ، لم يأتِ بذكر حفريات الجلجلة ولم يشر بكلمة الى الدور الذي نُسب الى الملكة في اواخر القرن الرابع بانها شرعت في التحقيق عن مكان الصليب ، وامرت بالحفر للبحث عنه، واقامت له كنيسة بعد ظهوره.

وهكذا قل عن القديس كيرلس الاورشليمي ، الذي اشار في رسالته الى قسطنس الى اكتشاف الصليب في عهد والده ، وذكر في عظاته انتشار عبادة الصليب وذخائره ، قد سكت سكوتاً تاماً عن علاقة والدته به.

والسائحة أثيريا التي زارت اورشليم سنة ٣٨٥ قد اخبرتنا ان الصليب اكتشف في اثناء تدشين كنيستي القيامة والجلجلة سنة ٣٣٥ ، اي ثماني سنين بعد اكتشاف القبر ، دون ان تشير بكلمة الى القديسة هيلانة.

ويُعلم ان القبر ظهر قبل الصليب ، وان الصليب لم يكن مدفوناً في القبر بل في مكان الصلب نفسه ، وانه لم يكن بعد قد اكتشف حين كتب قسطنطين رسالته الى مكاريوس ، فكيف نفسر سكوت اوسابيوس المؤرخ عن هذا الحادث ، وهو قد كتب حياة قسطنطين بعد وفاته سنة ٣٣٧ ، والاسطورة السريانية تدعي ظهور الصليب سنة ٣٢٦ . هذه العقدة لا تُحلّ . فالعقل لا يتصور ان قسطنطين واوسابيوس ، المتحمسين لظهور القبر ، لا يكترثان البتة لاكتشاف الصليب.

زد على ذلك ان سائح مدينة بوردو ، الذي زار اورشليم سنة ٣٣٣ ووصف عمود الجلد ودار قيافا وايوان بيلاطس وجبل الجلجلة ومغارة القبر وكنيسة القيامة ، كيف امكنه السكوت عن ذكر الصليب المقدس ، لو كان

الصليب موجودًا.

وخلاصة القول : ليس لدينا دليل على ان الصليب قد وُجد في سنة٣٢٦، حين زيارة القديسة هيلانة لاورشليم ، ولا قبل سنة ٣٣٣ التي حجّ فيها سائح بوردو الى المدينة المقدسة ، ولا قبل سنة٣٣٥ ، التي قصد فيها المؤرخ اوسابيوس الى هذه المدينة لحضور حفلة تدشين الكنيستين.

بيد انه يتحتم علينا ان نحدد ميعاد اكتشافه قبل سنة ٣٤٧ ، التي وصف فيها القديس كيرلس تهافت المؤمنين على اكرام ذخيرته والحصول على جزء منها، وبعد سنة ٣٣٥ التي حضر فيها اوسابيوس حفلة التدشين . اننا نجهل زمان هذا الاكتشاف والظروف التي احاطت به. هل كان في سنة ٣٣٤ ، التي تكرست فيها الكنيستان ، كما يستدل من اقوال الناخة أثيريا ، وما هي الوسائل التي اتخذت لمعرفة مكانه وتمييزه عن الصليبين الآخرين ؟ هل استرشدت الملكة باقوال اليهود ام خصّت لالهام العلي ؟ هل عرفته من اقامة الميت ام من شفاء المريضة التي استحضرها الاسقف مكاريوس ؟ ... فالاقوال متناقضة بهذا الخصوص . ومهما كان الامر فليس لدينا اشارة الى علاقة هذه الملكة باكتشاف الصليب قبل سنة ٣٩٠ . ففي هذا الحين تظهر الملكة فجأة في هذا الحادث وتمثل فيه دورًا مهمًا ، كما ان الآراء فيه تتعدد وتتضارب ، مما يحملنا على الشك في الامر ، ان لم نقل على نبذه كرواية خيالية.

اما الليتورجيّة فلا تطفئ لنا غلة بهذا الصدد. جاء في المونولوج الباسيلي انه بعد تدشين الكنيستين سنة ٣٣٥ : أذن للشعب في مشاهدة عود الصليب للمرة الاولى . وقد جاءت هذه الوثيقة متأخرة فلا يسعنا التعويل عليها.

وقد عرفنا من سوزومين المؤرخ(٤٤٣-٤٤٤) انه تعين لتدشين الكنيستين عيد رسمي كان يدوم ثمانية ايام ويُحتفى به في كل الامبراطورية. اننا لا يذكر عيدًا خاصًا بارتفاع الصليب . اما اسكندر الراهب الذي عاش في القرن السادس ، فيؤكد لنا ان الآباء القديسين ، بناء على ايعاز الملك قسطنطين ، حيددوا يوم ١٤ ايلول عيدًا واحدًا لتدشين الكنيستين ولظهور الصليب . وقد كانت حفلة ارتفاع الصليب هي أحد اقسام حفلة التدشين ،

وما لبثت ان اصبحت اكبر مظهر فيها ، كان المؤمنون يتوافدون من كل انحاء الامبراطورية لحضورها . وجاء في قصة مريم المصرية انها ركبت البحر من الاسكندرية في سنة ٣٨٠ برفقة اطجاج المسيحيين القاصدين الى القدس لمشاهدة حفلة ارتفاع الصليب . ولما شاهدت الخشبة التي عُلق عليها الفادي الالهي تخشعت وآمنت وتابت توبة نصوحة . وجاء في سياحة اثيريا ان عيد التدشين يُحتفى به احتفاء عظيماً ، لان فيه قد وُجدت خشبة الصليب ، وان الآباء قد وحدوا العيدين زيادةً في حفاوتها وفي سرور المؤمنين ، واردفت بقولها : « ان الجماهير كانت ترد لحضور هذا العيد العظيم من عدة مقاطعات : من بين النهرين وسورية ومصر العليا والسفلى . » وكلامها يثبت ان عيد ارتفاع الصليب كان منذ ذاك العهد يحتفى به في الرابع عشر من ايلول . وقد وافقها في ذلك القديس ثيودوسيوس . وذكر المؤرخان تاودوريطوس وتاوفانوس ان الخشبة المقدسة قسمت الى قسمين . الاول اودع ذخيرة ثمينة من فضة ابقيت في اورشليم ، والآخر حُمل الى القسطنطينية حيث اجتمعت ، فيما بعد الذخائر الثلاث ، كما ذكرنا ، وبلغت الحفاوة بها حداً بعيداً من الابهة . ويرجح الاب لكلير ان تعميم هذا العيد على الشرق كله يرجع الفضل فيه الى العاصمة البيزنطية . وقد كان يجري الاستعداد له في الايام الاربعة السابقة . وتقام حفلة الارتفاع « هيسوزيس » في الرابع عشر . ويُختم العيد في الاحد التالي.

١١ ــ نقد النص

ولننظر الآن اولاً ما قيمة هذه الاعتراضات ثانياً هل يصح تطبيقها على ميمرنا . ثالثاً اذا صح تطبيقها عليه هل تنفي نسبته الى القديس كيرلس.

١ ــ قيمة الاعتراضات

قد مر بك ان اهم ما يستند اليه الاب لكلير والقائلون قوله لانكار علاقة القديسة هيلانة باكتشاف القبر والصليب وبنا. كنيسة القيامة ، او بالاحرى لانكار صحة معلومات الاساطير السريانية ، هو ، اولاً سكوت المعاصرين عن

هذا الاكتشاف وهذه العلاقة . خاصة قسطنطين في رسالتـه الى مكاريوس ، واوسابيوس في ترجمته لقسطنطين . ثانياً لم يذكر احد هذه العلاقة قبل سنة ٣٩٠ . ثالثاً لم تزر هذه الملكة فلسطين قبـل سنة ٣٢٦ ، وكانت في سن الثمانين . رابعاً مغالاة الاساطير وتناقضها في تفاصيل الاكتشاف .

فليسمح لنا حضرته بلفت نظره اولاً الى ان السكوت عن امر لا يصح اتخاذه قاعدة لنفيه . فالسكوت عن اكتشاف الصليب لا ينفي ظهوره الا اذا ثبت ان رسالة قسطنطين الى الاسقف مكاريوس ذكرت كل ما له علاقة بالقبر والاماكن المقدسة ، وان تاريخ اوسابيوس ذكر كل ما له علاقـة بقسطنطين ومعاصريه وانه وصل الينا كاملاً سالماً . وهذا ما لا يسلّم به احد . نعم ان مثل هذا السكوت يثير الشك انما لا ينقض وثيقة صريحة معـاصرة ، الا اذا ظهرت وثيقـة احق منها بالتصديق . والى ان يبرز لنـا حضرته ومظاهروه مثل هذه الوثيقة ، لنا ملء الحق ان نتمسك بما لدينـا . لاسيما ان حضرته لم يتحفنا بسوى التأويلات والاوهام . واذا عثرنا في الاساطير على بعض المغالاة ، وفي روايات القرن الرابع على بعض التناقض ، فهي في التفاصيل الثانوية التي لا تجيز نبذ الاصل برمته . ولو تخلينا عن هـاتين القاعدتين لقلبنـا التاريخ رأساً على عقب .

فضلاً عن ان الاب لكلير نفسه يقول[1] في ترجمة قسطنطين التي نظمهـا اوسابيوس انها « عبارة عن تقريظ مقـدم لشخص جعلـه اليونان بين مصاف القديسين ، وغالوا منذ ذاك الوقت في مديحه » . فلا غروَ من ان يهمل المطرئ في كتابـه ما ليس لمترجمه فيه فضـل ، او ان ينسب اليـه ما لم يأته من الحسنات .

وقد راجعنا رسالة قسطنطين الى الاسقف مكاريوس فلم نجد فيهـا اشارة صريحة الى اكتشاف القبر المقدس ، والارجح انـه يشير الى اكتشاف الصليب والمسامير . فهو يتكلم عن ظهور « تمثال الآلام » (*monumentum passionis*)

---

١) كابرول : ع ٢٦٣٤

ولا يصح اطلاق هذا التعبير على القبر المقدس لان المسيح لم يتألم فيه بل على الصليب.

وقد داخلنا الريب في صحة الترجمة وعدنا الى النص الاصلي اليوناني[1] ، فتحققنا خطأ المترجم لانه عبّر عن كلمة τρόπαιον بكلمة monumentum اي تمثال او بناء مع ان معناها الحقيقي « علامة ، شارة » . وهي لا تأتي بالمعنى الذي اختاره المترجم الا نادرًا او بصيغة الجمع لا المفرد ؛ كما نبه الى ذلك اصحاب القاموس المطوّل المسمى « كنز اللغة اليونانية » المستندين الى الكتبة اليونان القدماء.[2] . اما بايلي الذي يستند في قاموسه الى القدماء والمتأخرين معًا[3] ، كالآباء القديسين ، فلا يذكر مطلقًا هذه الكلمة بمعنى تمثال بل يكتفي بقوله : *Signe. Marque. Ce qui fait reconnaitre* اي علامة ، اي ما يستدلّ منه على الشيء.

وقد اصاب مترجم المؤرخ تاودوريطوس الذي اثبت نصّ هذه الرسالة[4] فنقل الجملة المذكورة بقوله *passionis illius sanctissimæ signum* اي علامة آلامه المقدسة . ونجد ايضًا كلمة τρόπαιον بصيغة المفرد في سقراط المؤرخ[5] الذي اورد نص هذه الرسالة.

فان صحّ القول بان قسطنطين يقصد بهذه الرسالة ظهور « اداة الآلام » اي الصليب والمسامير ، لا القبر وحده ، تسنى لنا للمرة الاولى ترتيب الحوادث التي سبقت ولحقت هذا الاكتشاف وتعيين سنة ٣٢٦ تاريخًا له ، وهدم رأي الاب لكلير والقائلين قوله بان الصليب ظهر بين سنتي ٣٣٥ و٣٤٧ ، وتعيين تاريخ الرسالة المذكورة.

(١ Eusebius, *De Vita Constantini* l. III. XXX P. G. 1090

(٢ *Thesaurus Græcæ linguæ ab* Henrico Stephano. Carolus Beued. Hase, Gulielmus et Ludovicus Dindorfus... Parisiis. Firmin Didot, 1833, p. 688.

(٣ A. Bailly. *Dict. Grec-Français*. Hachette. Paris, 1894 p. 411

(٤ P. G. 82 col. 955

(٥ Socr l. IX P. G, 67, col. 95

وما يخوّلنا الحق في ذلك قول قسطنطين في هذه الرسالة « جاء هذا الاكتشاف العجيب على اثر تخلص المسيحيين من عدوّهم الاكبر» . وقد ادلى مترجم تاريخ اوسابيوس[1] ببراهين تدلّ على ان قسطنطين يقصد « بالعدو » صهره ليشينيوس (Licinius) الذي كان يشاطره الملك . فقد جدد هذا الاضطهاد على المسيحيين فحاربه قسطنطين ودحره في ١٨ ايلول سنة ٣٢٤ ، واضطرّه الى التنزّل له عن حصته في المملكة الرومانية . ونحن نعلم ان ليشينيوس توفي سنة ٣٢٥ [2] ، التي التأم فيها المجمع النيقوي ، في شهر آب . وان مكاريوس اسقف اورشليم عاد من هذا المجمع متسلحاً باذن من قسطنطين بان يهدم هيكل الزهرة الذي كان يعلو قبر المسيح . وان الملكة هيلانة وصلت الى اورشليم بعيد ذلك اي في سنة ٣٢٦ كما اخبرنا اوسابيوس نفسه . فهي اذًا قد اشرفت على اعمال رفع الانقاض عن القبر المقدس فظهرت مغارة القبر وداخلها الصلبان والمسامير كما روى ميسرنا . وحضرت ايضاً مباشرة بناء كنيسة القيامة فوق الجلجلة التي ضمت ضمن جدرانها مكان الصلب والقبر . ولما علم قسطنطين بهذا الاكتشاف كتب الرسالة التي نحن بصددها الى مكاريوس اسقف اورشليم يكلفه السهر على زخرفة الكنيسة . ولعل قسطنطين يعني «باداة الآلام» القبر والصليب والمسامير معاً وقد ظهرت كلها في آن واحد كما يروي القديس كيرلس في الميمر .

كل هذه المعلومات الثمينة تصحح حقائق تاريخية يصحّ تدوينها على هذا الترتيب في تاريخ الكنيسة . فيرتفع الغموض الذي حام حتى الآن حول ظهور هذه الآثار المقدسة وتبدد الشكوك التي رافقت حتى اليوم علاقة القديسة هيلانة باكتشاف القبر والصليب وبناء كنيسة القيامة .

اما تعيين الاب لكلير[3] تاريخ اكتشاف الصليب بين سنة ٣٣٥ ، التي حضر فيها المؤرّخ اوسابيوس تدشين كنيستي اورشليم ، وسنة ٣٤٧ التي وصف

---

١) P G. XX. 1090, nota 94.

٢) راجع ، في تاريخ انكسار ليشينيوس ووفاته ، معجم كابرول ٣ : ٣٦٢١ و٣٦٢٢

٣) كابرول : ع ٣١٢٧

فيها القديس كيرلس الاورشليمي المؤمنين متهافتين على الفوز بذخيرة عود الصليب ، فلنا عليه ثلاث ملاحظات :

الاولى نرى ان نحج حضرته بحجته ونقول : اذا كان سكوت اوسابيوس كافياً لنفي علاقة الملكة هيلانة باكتشاف الصليب ولانكار ظهوره قبل سنة ٣٣٥ ، تحتم على الاب لكلير ان يؤجل ميعاد هذا الاكتشاف الى بعد وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧ . لان اوسابيوس لم يكتب ترجمته الا بعد هذه الوفاة فادخاله سني ٣٣٥-٣٣٧ في ميعاد هذا الاكتشاف يخرج به عن القاعدة التي وضعها لنفسه ولغيره ويناقض به ذاته بذاته.

الثانية : وتراه قد ناقض نفسه ايضاً في جعله سنة ٣٤٧ حداً اقصى لظهور الصليب ، مستنداً الى اقوال القديس كيرلس الاورشليمي في مواعظه عن ذخيرة الصليب[1] ، وهو يأتي بعد ذلك بشهادة اخرى للقديس كيرلس نفسه وردت في رسالته الى قسطنس الثاني ابن قسطنطين[2] حيث يقول «في عهد والدك التقي وصاحب الذكر الصالح وُجدت في اورشليم خشبة الصليب المقدس» . ولما كان قسطنطين قد توفي في ١٢ ايار سنة ٣٣٧ ، فتحتم على الاب لكلير ان يُقدّم ميعاد اكتشاف الصليب الى ما قبل هذه السنة ، لا ان يؤخره الى سنة ٣٤٧ .

الثالثة : يقول حضرته[3] نقلاً عن اوسابيوس ان مكاريوس اسقف اورشليم، بعد عودته من مجمع نيقية ، الذي انتهى في ٢٥ آب سنة ٣٢٥ ، باشر باذن قسطنطين هدم هيكل الزهرة ، الذي كان يعلو القبر المقدس ، وتنظيف المكان وحفر أساسات كنيسة القيامة . ولما ظهرت مغارة القبر كتب اليه قسطنطين يهنئه ويخبره عن الاوامر التي اصدرها الى الحكام في شأن بناء الكنيسة ويوجه

---

١) كابرول مج ٣ : ع ٣١٣٥

٢) ع ٣١٣٦ ، راجع ايضا معجم فاكان مج ٣ : ع ٣٥٢٦ ، عن صحة نسبة هذه الرسالة الى القديس كيرلس

٣) ٣١٣٤ راجع ايضاً مقالة الاب آيل في معجم كابرول مج ٧ : ع ٢٢١٣

الاشراف على زخرفتها . وجاء في مقالة الاب آبيل في المعجم نفسه[1] « ان القديسة هيلانة لما زارت اورشليم كان حفر اساسات كنيسة القيامة قد بلغ الى آخر عمقه ، لان الاسطورة تنسب اليها اكتشاف الصليب . »والاب آبيل يمثل آراء كثيرين غيره من العلماء الذين يعتقدون ان الصليب اكتشف في اثناء حفر اساسات كنيسة القيامة . ونحن نعلم ايضاً من اوسابيوس ان كنيستي بيت لحم وجبل الزيتون بنيتا بسعي المليكة هيلانة حينما كانت في فلسطين[2] . ونعلم من ايجريا[3] ان كنيسة القيامة بنيت ايضاً بحضورها . فاذا كانت القديسة هيلانة في اورشليم سنة ٣٢٦ فقد حضرت عملية ازالة الردم ، التي اظهرت مغارة القبر ، وحضرت ايضاً حفر اساسات كنيسة القيامة ، حيث يُرجح العثور على الصليب ، فضلاً عن انها بقيت في اورشليم الى قبيل وفاتها سنة ٣٢٩[4] ، فكيف ينكر الاب لكلير علاقتها باكتشاف القبر والصليب وبناء كنيسة القيامة ؟ لاسيما ان ايجريا التي زارت اورشليم سنة ٣٨٥ اي في عهد القديس كيرلس تفيدنا انها بنيت بحضورها[5] . وكيف نتصوّر ان تكون شاهدت هذه الحوادث الخطيرة في تاريخ النصرانية ولا تعيرها الاهمية والمساعدة ؟ وهي التي تجشمت عناء سفر طويل في سن الثانين لزيارة الاماكن المقدسة ، وكان ابنها قد وضع تحت تصرفها خزنة المملكة[6] . ولا بأس ان تتم كنيسة القيامة وتُدشن بعد موتها اي في سنة ٣٣٥ ، بل يكفي ان تشرف على بدء الاعمال ليجوز لنا القول انها سعت وساعدت فيها . وهي التي اقامت وحدها كنيستي بيت لحم وجبل الزيتون . والغريب ان الاب لكلير يقول عنها في المحل ذاته : « حالما اعتنقت

---

١) مج ٧ : ٢٢١٣ ، راجعه ايضاً في كتابه « اورشليم ج ٢ صفحة ٩٠٣ H. Vincent et F. M. Abel. *Jérusalem*. Paris, Lecoffre, 1914.

٢) كابرول مج ٣ : ع ٢١٢٤

٣) كابرول مج ٣ : ٢١٢٥

٤) كابرول مج ٣ : ع ٢٦٢٢ ومج ٦ : ع ٢١٢٩

٥) مج ٣ : ع ٢١٢٥

٦) مج ٦ : ع ٢١٢٨

النصرانية اظهرت عبادة حارة نشيطة ، حتى ان اسمها اصبح مقروناً بتاريخ الاماكن المقدسة واكتشاف الصليب » . فنحن لا نرى بعد ذلك في علاقتها بهذا الاكتشاف « امراً غريباً وعقدة لا تُحل » كما يدعي حضرته[1] ، بل نرى غريباً ومعقداً ان لا يجري الامر بخلاف رأيه .

ولنختم ردنا بملاحظة اخيرة على تناقض الاب المذكور . يقول في مقالته المذكورة[2] : يُستدل من كلام القديس كيرلس الاورشليمي في عظته ٤ : رقم ١٠ و١٠ : رقم ٩ ان عبادة تكريم الصليب قديمة . واليك عبارته بالفرنسوية « *Cyrille de Jérusalem (catech. IV, 10, X, 9) parle déjà du culte de la croix comme ancien.* » ولما كان حضرته يصرح[3] ان هاتين العظتين أُلقيتا في صوم سنة ٣٤٧ فكيف جاز له بعد ذلك ان يعين اكتشاف الصليب بين سنتي ٣٣٥ و٣٤٧ ؟ هل هذه المدة كافية لتلقيب عبادة تكريم الصليب « بالقديمة » ؟

---

١) مج ٣ : ع ٢١٢٧
٢) ع ٢١٢١ حاشية ١ .
٣) ع ٢١٢٥

(لها بقية)